

أهمية التعليم القرآني وعناية السلف به

✍ الشيخ مبروك به هلال

إمام مسجد الفلاح بشار



الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله صلى عبده ورسوله ربي اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل العقدة من لساني يفقه قولي أما بعد فإن القرآن الكريم هو كتاب الله الذي ختم به جميع الرسالات وهم منهج حياة متكامل يكفي للعبد السعادة في الدنيا والآخرة فهو كلام الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وقد تكفل الله بحفظه من التغيير والتحريف والتبديل والزيادة والنقصان قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾⁽¹⁾، وهياً الله له صدوراً نقية طيبة حملته بكل صدق وأمان من سلفنا الصالح جزأهم الله عن الإسلام والمسلمين خيراً بدأ من أظهر وأنقى قلب على الإطلاق قلب المصطفى ﷺ ثم صحابته ثم التابعين وهكذا إلى أن وصل إلينا نقياً مهذباً من كل خلط أو تغيير مهما حاول أعداء الإسلام والمسلمين من دس شيء فيه لتحريفه إلا وكان حفاظه لهم بالمرصاد وهذا إن دل على شيء لا يدل إلى على حفظ الله له وهو شيء لا يختلف فيه مسلمان ولا يتناطح فيه عنزان.

(1) سورة الحج/9.

المبحث الأول: أهمية التعليم القرآني.

أيها السادة الحضور. إن أهمية التعليم القرآني لا نستطيع الإحاطة بها في هذه المداخلة المتواضعة، ولا أن نستوفيها حقها، لكن ما لا يدرك كله لا يترك جله، نحاول أن نلامس خيوطها وأن نحوم حولها، فنقول وبالله نستعين. إن أهمية القرآن الكريم نوجزها فيما يلي:

أ - لقد جعل الله القرآن الكريم المرجع الأول للمسلمين، مهما تباعدت عصورهم وتباعدت دهورهم، واختلفت أجناسهم وألوانهم، فكلهم يرجعون إليه في التعرف على أحكام شريعة الله للعمل بها، ويرجع إليه المجتهدون خاصة من العلماء، ليستنبطوا من نصوصه المختلفة، الأحكام الشرعية لكل ما يجد في حياة الناس اليوم وغدا إلى يوم الدين.

ب - جعل الله تبارك وتعالى القرآن حكما عدلا بين الناس، ووضع فيه الميزان، وبين فيه أسس العدل وموازن القسط التي تصيب كبد الحق، ولا تخطئه طرفه عين، فأمرنا سبحانه بالاحتكام إليه في كل ما اختلفنا فيه فقال عز من قائل: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾⁽¹⁾، بل ذهب القرآن الكريم إلى وصف من لم يحكم بما أنزل الله معتقدا أنه غير صالح لذلك وجاحدا هذه الصلاحية بالكفر والظلم والفسق، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾⁽²⁾.

ج - من أهمية تعليم القرآن، أنه جاء والناس في أمس الحاجة إليه بعد أن حاط الفساد بالبشرية من كل جانب.

فكان من حكمته ﷺ أن أنزل كتابا هاديا إلى الحق يتضمن من الخصائص ما يعالج بها المشاكل الكائنة والتي ستكون في شتى مرافق الحياة، ووضع سبحانه فيه البلسم الشافي لكل مشكلة ضمن القواعد العامة، فهدى الناس إلى أسمى

(1) سورة الشورى/10.

(2) سورة المائدة/44.

العقائد وأصدقها وأبينها، وحارب بالقرآن الشرك والوثنية، وأقام الحجة على وجوده سبحانه، وشرع فيه من العبادات ما يزداد به الإيمان وتطهر به النفوس وتخضع لله تعالى وتستغني عن شرعة غير شرعة القرآن في كل زمان ومكان، إن تمسك به الناس، وابتغوا الهدى في آياته، فهو بحق كتاب هداية في كل ما ينفع الناس في دنياهم وأخراهم، وفي كل أمر دقيق وجليل، وصدق الله إذ قال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾⁽¹⁾.

ولهذا أكثر تتضح أهمية تعلم القرآن الكريم وقد جمع لنا رسول الله ﷺ هذه المزايا وأزيد في حديث له أخرجه الترمذي، والتي تبين أهمية التعليم القرآني والاشتغال به، قال الرسول ﷺ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةً قَالَ: قُلْتُ فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَضْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ مَنْ يَرُدُّهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَخْلُقُ عَنْ رَدٍّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهُ الْجَنُّ حِينَ سَمِعَتْهُ أَنْ قَالُوا: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دُعِيَ إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَمَنْ اغْتَصَمَ بِهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

د. ومن أهمية التعليم القرآني ان المشتغل به جالس لمأدبة الله تعالى التي هي أفضل وأرفع وأعلى المآدبات، ومتعرض لأنوار الله في بصره وبصيرته ومشافى ومعافى من كل الأمراض الحسية والمعنوية، ومعصوم من الانزلاق والانحراف في طريقه إلى الله وناج من النيران ومن كل الفتن ما ظهر منها وما بطن ومأجور على تلاوته، وهذا ما ورد في الحديث: فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن

(1) سورة الإسراء/9.

النبي ﷺ قال: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْذِبُهُ اللَّهُ فَاقْبَلُوا مِنْ مَأْذِبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَبْلُ اللَّهِ، وَالثُّورُ الْمُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ تَبِعَهُ، لَا يَزِيغُ فَيَسْتَعْتَبُ، وَلَا يَعْوجُّ فَيَقْوَمُ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِظُهُ، وَلَا يَخْلُقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، ائْتَلَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْجُرُكُمْ عَلَى تِلَاوَتِهِ كُلَّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ وَلَامٌ وَمِيمٌ»⁽¹⁾.

هـ - ومن أهمية التعليم القرآني خصوصاً للصغار من أجل اعتقاد أن الله تعالى هو ربهم، وأن هذا كلامه تعالى، ولأجل أن تسري روح القرآن في قلوبهم ونوره في أفكارهم ومداركهم وحواسهم، وأن ينشئوا ويشبوا على صحبة القرآن والتعلق به، والالتزام بأوامره والانتفاء عن مناهيه والتخلق بأخلاقه والسير على مناهجه، ولذلك قوله ﷺ فيما ورد عن سيدنا علي كرم الله وجهه وﷺ: «أَدَّبُوا أَوْلَادَكُمْ عَلَى خِصَالٍ ثَلَاثٍ: عَلَى حُبِّ نَبِيِّكُمْ، وَحُبِّ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَعَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ حَمَلَةَ الْقُرْآنِ فِي ظِلِّ اللَّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ مَعَ أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ»⁽²⁾.

وقال ﷺ: «علموا أولادكم القرآن فانه أول ما ينبغي أن يتعلم من علم الله هو»⁽³⁾.

فأصبح تحفيظ القرآن للصبيان من أولى الواجبات التربوية وأكدها علماً، وذلك أصل من أصول الإسلام فينشئون على فطرة، ويسبق إلى قلوبهم أنوار الحكمة. ومن أهمية والتعليم القرآني الفوز بالخيرية والحصول على أفضلية لا تؤتى من قبل الله ﷻ إلا لمن حبس نفسه على التعليم القرآني، هذه الخيرية التي يرجوها كل مسلم تتجلى عندما يمتلئ قلب المعلم، هذه الخيرية التي يرجوها كل مسلم تتجلى عندما يمتلئ قلب المعلم بالقرآن الكريم، يتدبر آياته وحكمه،

(1) أخرجه الحاكم من رواية صالح بن عمر، وهو صحيح

(2) أخرجه الطبراني.

(3) أخرجه الربيع.

ويتفكر في دلائل قدرة الله وعظمته، وفي أوامره ونواهيه، ومواعظه، وحكمه، فتصفوا بذلك نفسه، وتجمل أخلاقه وترق أحاسيسه، ويخشع قلبه، ويكون من أهل الله وخاصته، وكفى بهذه الدرجة فضيلة وخيرية. قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

المبحث الثاني: عناية السلف به:

قال الشيخ الفقيه أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني رحمه الله وأرضاه: «وأولى ما عني به الناصحون ورغب في أجره الراغبون إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها»، ولا خير أفضل من كتاب الله تعالى، ومما يدل على عناية السلف بالتعليم القرآني أنهم حبسوا أحباسا منذ القدم على حفظه القرآن الكريم، معلمون ومتعلمون، وبنيت لذلك مدارس وأُسست زوايا، وبفضل هذه الدور التي كانت تزخر بها بلادنا، ولا زال البعض منها قائما يؤدي مهمته على أحسن ما يرام، والحمد لله بقي القرآن الكريم محفوظا في هذا الوطن الحبيب. وقد تواترت نصائح السلف ووصاياهم بتعلم القرآن الكريم وحفظه في الصدور وهذا إن دل على شيء إنما يدل على عنايتهم بالتعليم القرآني. من هذه النصائح والوصايا ما يلي:

1 - قال ابن البر: «القرآن أصل العلم فمن حفظه قبل بلوغه ثم فرغ إلى ما يستعين به على فهمه من لسان العرب، كان له ذلك عونا كبيرا على مراده منه». فحفظ القرآن من خصائص هذه الأمة المحمدية.

2 - وقال الحافظ بن الجزري رحمه الله: «ثم إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على خط المصاحف والكتب، وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة».

3 - وقال الإمام النووي: «كان السلف لا يعلمون الحديث والفقه إلا لمن يحفظ القرآن....».

4. ومن عنايتهم بحفظ القرآن، ما رويناه عن شيخنا سيدي محمد بن الكبير رحمته الله أن أهل فاس كانوا يمنعون الصبي المتعلم للقرآن، أن يمتلك المصحف أو يرى بين يديه وهذا حتى يعتمد في الحفظ على تلقين الشيخ وذاكرته وهكذا يفعل معه بالنسبة للمتون. ويروى عن حملة القرآن عندنا في الشمال الجزائري أنهم يقولون: «اللي شيخوا مزود يمشي يرقد...». وتعلمنا من شيخنا رحمته الله قولهم: «لا تأخذ العلم من صحفي ولا القرآن من مصحفي».

وشاهدت من شيخنا رحمته الله مواظبته على تلاوة القرآن وتعمير الأوقات به وتعدد الختمات فكان عندما يكون مريضا لا يقدر على تقديم الدرس يجعل بدله تلاوة القرآن، وكان لي شرف أن لازمته أياما فكان يخرج للمجلس وهو يعاني من الحمى فيجلس ويستعيد بالله مستفتحاً للتلاوة للطلبة، ويبقى معنا وكان بعد ذلك يقول: «أخرج وأنا أعني لكن بعد الجلوس والشروع في التلاوة أو حتى في الدرس أنسى أنني مريض».

وليس هذا يا سادة غريب على من شب مند نعومة أظفاره على الاشتغال بالعلم والقرآن، خصوصا من قيد الله له والدا مثل والد شيخنا الذي كان ملازما له وملتصقا به في تعليم القرآن.

فمن شب على شيء شاب عليه، فرحم الله الوالد والشيخ المولود، شفع الله فينا وفيهما القرآن الكريم آمين.

5. قال ابن عبد البر: طلب العلم درجات ومناقل ورتب لا ينبغي تعديها، ومن تعداها جملة فقد تعدى سبيل السلف رحمهم الله، ومن تعدى سبيلهم عامدا ضل، ومن تعداها مجتهدا زل، فأول العلم حفظ كتاب الله تعالى وتفهمه....

وقال أبو الفضل الرازي: وعلى الحفظ والتحفيظ كان الصدر الأول ومن بعدهم فمن أراد أن يتأسى بسلفه الصالح في عنايتهم بكتاب الله عز وجل فليحفظ

القرآن لأن حفظه هو الأصل في تلقيه، قال الحق تبارك وتعالى في وصفه ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾⁽¹⁾.

6 - ومن عناية السلف بالقرآن كما جاء في بعض كتب السيرة أنه جاء جماعة إلى الرسول ﷺ يطلبون معلماً فبعث عباد بن بشر الصحابي الجليل، وطلب منه أن يعلمهم شرائع ويقرئهم القرآن، كما كان ﷺ يدفع كل مهاجري جديد إلى أحد الحفاظ ليعلمه القرآن فشاع حفظه بين الرجال والنساء، حتى أن المرأة المسلمة كانت ترضى بسورة من القرآن أو أكثر مهرًا لها.

7 - قال ابن خلدون «اعلم أن تعليم الولدان القرآن شعار من شعار الدين، أخذ به أهل الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، بما يسبق فيه القلوب من رسوخ الإيمان، وعقائده من آيات القرآن، وصار القرآن أصل التعليم ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات...»، ثم قال: «اختصت العوائد الإسلامية بتقدم دراسة القرآن، إثارة للتبرك، وخشية ما يعرض للولد من جنون الصبا من الآفات والقواطع فيفوته القرآن».

وأول من قرأ في مدرسة القرآن، وتربى بهديه، واهتدى بتربيته، واتخذ هجيره الصحابة رضوان الله عليهم الذين أقبلوا على تعلم القرآن وتعليمه، مستجيبين لقوله ﷺ «من قرأ القرآن وتلاه وحفظه أدخله الله الجنة»⁽²⁾.

8 - ومن عناية السلف بالتعليم القرآني الاستمرارية في تحفيظ القرآن للنشء كما ذكرنا ومحافظتهم على رسم القرآن، وذلك بأحداث آلية من خلالها يتعلم الطالب رسم القرآن مع الحفظ، وهي كيفية التلقين المعروفة بالفتوى على اللوح، ومن أهم مزاياها تعلم الرسم العثماني للمصحف، لأن القرآن حفظ ورسم وليس حفظ فقط.

(1) سورة العنكبوت/49.

(2) أخرجه البخاري.

ذكر صاحب الإبريز عن شيخه العارف بالله سيدي عبد العزيز الدباغ أنه قال «رسم القرآن سر من أسرار المشاهدة، وكمال الرفعة، وهو صادر من النبي ﷺ، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها، ونحو ذلك، لأسرار لا تهتدي إليها العقول إلا بالفتح الرباني وهو سر من الأسرار خص الله به كتابه العزيز، فكما أن نظم القرآن معجز، فرسمه معجز أيضا». قال الإمام أشهب: «سئل مالك هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟ فقال: لا، إلا الكتابة الأولى»⁽¹⁾.

وقال الإمام ابن حنبل: «تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك، وقد نقل الجعبري وغيره إجماع الأئمة الأربعة على وجوب اتباع مرسوم المصحف العثماني». وقال في المقنع بعد أن ذكر جواب مالك المتقدم: «ولا مخالفة لمالك من علماء الأمة.....».

الخاتمة:

لقد اعتنى النبي ﷺ بحفظ القرآن وتحفيظه، وكذا السلف الصالح بدءا من الصحابة رضوان الله عليهم، ثم من بعدهم كما سبق ذكره؛ لأنهم علموا يقينا أن النصر لا يأتي إلا إذا اعتصمت الأمة بكتاب ربها وسنة نبيها ﷺ، فهذا سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يمر على خيام المجاهدين في معركة القادسية، فإذا سمع القرآن في تلك الخيمة يقول: من هنا يأتي النصر....، وإذا وجد أهل الخيمة التي بجوارها غافلين عن قراءة القرآن قال: ومن هنا تأتي الهزيمة... فلا عز للأمة إلا إذا تمسكت بكتاب ربها ﷺ فحفظ القرآن سهل وميسور لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾⁽²⁾. فمن وجوه إعجاز القرآن الكريم تيسير حفظه على جميع الألسنة حتى حفظه الأعجمي وغيره.

(1) ذكره الداني في المقنع.

(2) سورة القمر/17.

وحافظ القرآن دليله بين يديه، إذا قام يوما خاطبا أو مدرسا في قوم لا يحتاج أن يبحث على الدليل، يقال: ما في صدور الرجال لا يطلب فيه آجال.... فمهما أراد أن يتكلم في موضوع معين إلا ويجد الأسئلة تنساب عليه من القرآن الكريم. حفظ القرآن ييسر قراءته في كل وقت وعلى أي حال، يقرأه وهو يمشي وهو يقود سيارة وهو ينتظر أحد إخوانه، يقرأه صباحا ومساء، وليلا ونهارا حفظ القرآن من أسباب النجاة من النار: قال الرسول ﷺ: «لو جمع القرآن في إهاب ما أحرقه الله بالنار....»⁽¹⁾.

حفظ القرآن مهر للصالحات. فقد كان من سلفنا الصالح من تزوج امرأة صالحة وجعل مهرها حفظ بعض السور من القرآن الكريم. فاحرصوا أيها السادة الأكارم كل الحرص على حفظ كتاب الله ﷻ وعلى تحفيظه، للنشء قبل أن يأتي علينا اليوم الذي أخبر عنه الصادق المصدوق ﷺ: «درس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدري ما صيام ولا نسك ولا صدقة، ويسري على كتاب الله في ليلة فلا يبقى منه في الأرض آية....»⁽²⁾.

وقال سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ: «لينزعن القرآن من بين أظهركم يسري عليه ليلا فيذهب من أجواف الرجال فلا يبقى في الأرض منه شيء.....»⁽³⁾. بهذا الأثر نختم مداخلتني هاته فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان. فالله نسأل أن يرزقنا حفظ القرآن الكريم ويوفقنا للعمل بما فيه ويجعلنا من الذين يقيمون حدوده كما يقيمون حروفه، ويرفع درجاتنا في الجنة به، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



(1) أخرجه البيهقي.

(2) أخرجه ابن ماجه والحاكم.

(3) أخرجه الطبراني.